﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 106 - 107]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإجابة بالاعتذار، والتّعجيلُ بالرّجاء

بعد أنْ سُئل أصحابُ النّار توبيخًا عن تبليغ الرّسل إيّاهم رسالة ربِّهم وتكذيبِهم بها، فكأنّهم قد خُيّل إليهم أنّه قد أُذِنَ لهم في الكلام، وأنّ اعترافهم بذنوبهم قد يدفع عنهمُ العذابَ[1]، وأنّهم إن عادوا أصلحوا من أمرهم[2]؛ أجابوا بالاعتراف، وعجّلوا بالرّجاء.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَلَبَتۡ﴾: (غلب) أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ وشِدّة[3]، والغَلَبةُ: القهر، وغلبَ عليه: استولى، يقول عزّ من قائل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف: 21]، وأصلُ (غَلَبْتَه) أن تتناول وتُصيب غَلَبَ رقبتِه[4]؛ فصارت الغلبةُ شِدّةً مع عُلوّ وعِظَم[5]، ومعنى ﴿غَلَبَتۡ﴾ في الآية: استولت علينا شِقْوتُنا واشتدّت علينا وقَهَرَتنا.

2) ﴿شِقۡوَتُنَا﴾: (شقى) أصلٌ يدلّ على المعاناة، وهو خِلاف السّهولة[6]، والشِّقوةُ: خِلافُ السّعادة[7]، والشَّقا: الشِّدَّةُ والعُسْرُ؛ ويُطلَق على التّعب الشّديد شقاء[8]، فالشَّقاءُ تعبٌ وبَذْلُ طاقةٍ في مغالبةٍ أو مُراودَة[9]، وأهمّ ما يُتعب الإنسانَ في الحياة ويُنهِكُه هو

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(7) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (غلب).
(9) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقو).

كثرة مطالب شهواتِه، وشِدّةُ تَحَكّم هواه في أمره، فيوردُه الشّقاءَ في الدّنيا، ويورِثُه الشّقاءَ الحقيقيَّ في الآخرة؛ فمعنى ﴿شِقْوَتُنَا﴾ في الآية الكريمة؛ أيْ: شهواتُنا وهوى أنفسِنا[1].

3) ﴿ضَآلِّينَ﴾: ضلَّ الشّيءُ: خفيَ وغاب ولم يتميّز، والضّلالُ: الحَيرة؛ لأنّ الحائر يغيب عنه كثيرٌ من وجوه الأشياء[2]، ويَنتُج عن الضّلال العدولُ عن الطّريق، وسلوكُ طريقٍ لا يوصِل إلى المطلوب[3]، كما يُطْلَق على الضّياع، وعلى العُدول عن القَصْد[4]، سواءٌ أكان العدولُ عمدًا أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وضِدّ الضّلال الهداية[5]، ومعنى ﴿ضَآلِّينَ﴾ في الآية الكريمة؛ أيْ: مُنحرفين عن الصّراط المستقيم.

4) ﴿عُدْنَا﴾: العَوْدُ: هو رجوعُ شيءٍ إلى حالٍ كان عليها[6]، كأنّه انصرف منها ثمّ رجع إليها، سواءٌ أكان الانصرافُ مادّيًّا أو معنويًّا، أو بالقصد إلى الانصراف فقط، ثمّ عاد[7]، ومعنى ﴿عُدْنَا﴾: رجعنا إلى الحال التي كُنّا عليها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أجاب أصحابُ النّار عن سؤال ربّهم وتوبيخه: يا ربّنا تغلَّبت علينا أنفسُنا الأمّارةُ بالسّوء، ومَلذّاتُنا وشهواتُنا، وكُنّا بسبب ذلك قَوْمًا ضالّينَ عن الهُدى والرَّشاد، ربّنا اصرفنا من هذه النّارِ التي تلفح وجوهَنا؛ فإنْ رجعنا إلى ما نحن عليه من الكُفر فإنّا مُتجاوزون لكلِّ حدٍّ في الظُّلم[8].

اعـــتراف أهـلِ النّار بضلالهم وانـحـرافِـهـم وتـمـنّـيـهـم الرّجوعَ لإصلاح أعمالهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10166.
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ضلل).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(5) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عيد).
(7) الرّاغب، المُفردات: (عود).
(8) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 66.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصل الجملة عن سابقتها:

أيُّ جـوابٍ ينفعُ في هذا المقام؟

فُصِلَت الآية ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ عن سابقتها ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لتمام الاتّصال بينَهما؛ فالأولى سؤالٌ، والثّانية جوابٌ؛ على عادة القرآن الكريم في الفصل في المحاورات[1]، ومبنى هذا الفصل على وجود سؤال مُقدَّر هو: فماذا أجابوا؟.

سِرُّ حذفِ حرفِ النّداء في ﴿رَبَّنَا﴾:

القريبُ الحاضرُ لا يُنادَى

حُذِف حرفُ النّداء (يا) في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾؛ ولعلّ السِّرَّ في ذلك هو شعورُهم بقُرْبِه ﷺ؛ فهو معهم حيٌّ قيّومٌ، فلا يقتضي الأمرُ استعمالَ حرفِ النّداء، وهو أيضًا استعطافٌ للمُنادَى بإشعاره بأنّه ﷺ قريبٌ لا يُنادَى.

سِرُّ النِّداء ﴿رَبَّنَا﴾ وإضافته:

اعـــترافٌ بالله ربًّـا للجميع، واستعطافٌ لمَن شأنه الرَّحمة

جاء النّداء في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ مُضافًا إلى المُتكلِّمين، والسِّرّ في ذلك: هو الإعلانُ عن رُبوبيّة الله تعالى لهم بعد أن كانت أعمالُهم منكِرَةً له؛ فهو الرّبُّ حقًّا، وهو ربُّنا استعطافًا[2]؛ من حيثُ إنّك ربُّنا، ومن شأن الرّبِّ الرّحمةُ والرّأفةُ، فارأف بِنا[3].

دلالةُ الفعلِ ﴿غَلَبَتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

لـــن تـنـفـعَ المُـعـذَّبـين يـومَ القيامةِ مقاومةُ العذاب

عبّر القرآنُ بالفعل ﴿غَلَبَتۡ﴾ في قوله: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾، ومادَّتُه تُشْعِر بمحاولاتٍ للتّغلّب على الشّقْوَة؛ لكنّها استولت وغلبت وتَحَكّمت[4]؛ فكانت هذه المادّةُ أدلَّ على قوّة الشّهوات والهوى، ومَدى تحكّمِها فيهم، وأمّا صيغةُ الماضي في ﴿غَلَبَتۡ﴾ فتُشْعِر بأنّ غلبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 189.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204.

الشّقوة قد وقعت واستقرّت ورسخت؛ ففي هذه الصّيغة تمكينٌ لمعنى الكلمةِ وملاءمةٌ له.

نُكْتَةُ تقديمِ مُتعلّق الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾:

الاعتذار بسيّء الأعمال من شدّة الذلّ

تدلّ (على) في قولِه: ﴿عَلَيْنَا﴾ على تمكُّن الشِّقوة منهم، وإحاطتِها بهم، وعظيمِ تأثيرِها فيهم؛ اعتذارًا للّه ﷻ؛ ليُخَفّف عنهمُ العذابَ بإخراجهم مِنَ النّار، وقد تقدّمَ شِبهُ الجملة ﴿عَلَيْنَا﴾ على الفاعل في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ إبلاغًا في الاعتذار بالإبلاغ في تقرير سيطرة الشِّقوة وهيمنتِها عليهم؛ فالغرضُ من ذلك هو الاهتمامُ بمتعلّق الشّقوة، وغرضُهُم بيانُ أنّهم مغلوبون على أمرهم، وهو ما يظنّنون أنّه يستدعي التّجاوز عنهم[1].

نُكْتَةُ الإضافةِ إلى ضمير الجماعة في ﴿شِقْوَتُنَا﴾:

اختصاصُ الشّقاوةِ بالمُعذَّبين دون غيرهم

أُضيفَت الشِّقوة في ﴿شِقْوَتُنَا﴾ إلى نون الجماعة، ونُكْتَةُ هذه الإضافة هي اختصاصُهم بهذه الشّقوة؛ حيثُ صارت غالبةً عليهم[2] بسوء اختيارهم[3]؛ حيث إنَّها شقاوة استولت عليهم وملكتهم، واقتضاها عليهم سوء استعدادهم وعملهم[4].

بلاغةُ اصطفاء لفظة ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وموقعه الإعرابيّ:

الشّقوةُ بُؤْسٌ محيطٌ حتّى صار هيئةً ملازمةً

اصطفتِ الآيةُ لفظَة ﴿شِقْوَتُنَا﴾، وفي اصطفائها دلالاتٌ عديدة؛ أمّا من حيثُ مادَّتها فمِنَ الشّقاء؛ وهو ضِدّ السّعادة، ولفظةُ الشّقاءِ تحمل المعاناةَ والتّعبَ، والإنهاكَ المُحيط بالإنسان[5]؛ وذلك للدّلالة على أنّهم ما كانوا في سعادة بل بُؤس؛ فهم أهلٌ للإشفاق.

وقد وقعتِ الشّقوةُ فاعلًا؛ أيْ إنّها التي اختارت وفعلت التّغلّبَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 151.
(4) الآلوسي، روح البيان: 9/266.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10166.

وأثّرت، وصار هؤلاء مُنفعلين مُتأثّرين لا حولَ لهم ولا طاقةَ تجاهها، وفي الجمع بين معنى البُؤس المحيط بأصحاب النّار، وأنّ هذا البُؤسَ هو المُؤثّر فيهم ما يُسوِّغ اعتذارَهم، ويرفعُ عنهم السّؤالَ - في تصوّرهم - ويُجَنِّبُهم الجزاء.

بلاغة المجازِ المُرسل في ﴿شِقْوَتُنَا﴾:

ذِكْـرُ الشّـقاء وإرادةُ سببِه مـن الشّـهـوات والأهواء

في استعمال ﴿شِقْوَتُنَا﴾ في الآية الكريمة صورةٌ بيانيّةٌ بديعةٌ؛ وهي المَجاز المُرسل بذِكْر المُسَبّب؛ وهو الشّقاء، وإرادةُ السّبب؛ وهي الشّهوات والأهواءُ، وصار المعنى: إنّ تلك الشّهواتِ والأهواءَ قد سيطرت عليهم، وأدّت إلى ذلك الشّقاء[1]، وصار الاعتذارُ يحمل تعليلًا، إضافةً إلى ذِكْر الحال.

التّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في ﴿شِقْوَتُنَا﴾:

تـنـوع المـصـادر اللـغـوية يرشد إلى الـحـال النفسية

قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين والقاف وألفٍ بعدها: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾، وقرأ الباقون بكسر الشين، وإسكان القاف من غير ألف: ﴿شِقْوَتُنَا﴾[2]، والشِّقْوة: مصدر كالرِدّة، والفِطْنة، والشَّقَاوة: كالسَّعَادة، والقَسَاوة[3]، ومن بلاغة القراءات هنا الكشف عن مكنون الحال النفسية المتحسرة لأهل النار، فقد عبَّروا عن حالهم بكل مصدر ليطلبوا الرحمة والرجوع.

سِرُّ حذفِ المفعول في ﴿غَلَبَتْ﴾:

الانفعال بغَلَبَة الشّقاء هو محلُّ الاهتمام

حين ذكرتِ الآيةُ الشِّقوةَ في قوله: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ حذفتْ مفعولَها، فماذا غلبتِ الشِّقوةُ؟ لقد غلبتِ السَّعادةَ[4]، ولعلّ السِّرَّ في حذف المفعول هو التّركيز على الغالب، وحالِ المتأثّر بهذه الغَلَبة؛ فليس القصدُ هنا التّركيز على الشّقاوة أو السّعادة بقَدْر

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 590، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 329.
(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 302، وابن منظور، لسان العرب: 14/438.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 127.

ما هو الاعتذار لَمن تأثّر بهذه الغلبة، وفي الحذف أيضًا تنبيهٌ على كمال غَلَبة الشّقوة، بحيثُ لم تُبْقِ أدنى مجالٍ لوجودِ شيءٍ مِن معنى المحذوف، وهذا من شأنه جلبُ قبولِ اعتذارهم - في ظنّهم -؛ ولكن هَيْهاتَ هَيْهات!!

دلالةُ الواو في ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾:

عطفتِ الواوُ ضلالَهم على غلبة الشّقوة عليهم حتّى يتمَّ تصويرُ شِدّة الانفعال، وليَصِحَّ الاعتذارُ؛ فالشّقْوة تَقَوَّت بضلالهم فغلبت عليهم؛ فكأنّهم معها كالمأسورين، تَؤُزُّهم إليها الشّياطين[1].

عِلّة استخدامِ الكون والقوميّة في قوله: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾:

قد يُفَسِّر بلاغةَ مُفرَداتِ الجملة موقعُها ممّا قبلَها

عبّر النَّظم القرآنيُّ بالكون والقوميَّة؛ لأنّ الجملةَ المعطوفة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ وقعت مِمَّا قبلَها موقعَ السّببِ والعِلّة التي أعانت أهواءَهم على أن تُهيمنَ عليهم وتقهرَهم وتُسيطرَ عليهم؛ وليس أيُّ ضلالٍ يتسبّب في مِثْل ذلك؛ وإنّما هو الضّلالُ الكاملُ التّامُّ الذي رسخ فيهم واستقرَّ، وتمكَّن منهم، وصار عريقًا فيهم، وما عليه التّنزيلُ الحكيمُ هو المُؤدِّي ذلك؛ فمادّةُ الكونِ تعني أنَّ الضّلال كان من ديدَنهم وشأنهم وطَبْعِهم، وصيغةُ المُضيّ تُمكِّن ذلك؛ وإن كان التّعبيرُ بها لأنّ الأمر قد كان، وكلمةُ: ﴿قَوْمًا﴾ تعني أنّهم كانوا جديرين بألّا يكونوا ضالّين؛ فلا يعتقدون ما هو ضالٌّ أو ما يُؤدّي إلى الضّلال؛ لأنّ لديهم قِوامةً أعطاها اللّهُ لهم؛ ليُمَيّزوا بها بين الحَقّ والباطل؛ فهم قومٌ عَرفوا الحَقّ والباطلّ؛ ولكنّهم تجاهلوا الحَقّ وتركوه، وأقبلوا على الباطل، وفي كلمة: ﴿قَوْمًا﴾ أيضًا: معنى أنّ الضّلال داخلٌ في جِبِلَّتهم[2]، وأنّه مُتأصّل فيهم وخاصّيّةٌ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189.

خصائصهم[1]؛ ما يجعلهم يتأثّرون ببعضهم البعض، ويُؤيّد بعضهم بعضًا؛ فأورثَهم الضّلالَ جميعًا[2].

سِرُّ اختيار لفظ الضَّلال مادَّةً وصيغةً:

بُعْدُ الهداية عنهم وبقاؤهم على ذلك عُمُرًا

اختير لفظُ الضّلال في الآية ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ لأمرٍ مُتعلِّق بمادّته وصيغته؛ فأمّا عن مادّة اللّفظ ﴿ضَآلِّينَ﴾؛ فالضّلالُ ضِدّ الهُدَى؛ وهو عدولٌ عن السَّواء، كأنّهم لبُعْد الهدايةِ عنهم قد ضلّوا وحادوا؛ فهذه المادَّة تدلُّ على قوّة موجِباتِ الشَّقاوة فيهم[3]، وأمّا عن صيغته فقد جاء لفظُ ﴿ضَآلِّينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل الدّالّ على رسوخ المعنى، فقد لبثوا عُمُرًا على حال العماية حتّى ترسّخ الضّلال فيهم، وكأنّ قولَهم هذا يُضْفي على اعتذارهم قبولًا؛ فلم تأتهم آياتُ الهُدى دَهرًا؛ فضَلّوا.

سِرُّ فصلِ قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ عمّا قبلَه:

في التّصريح بالمطلوب بعد التهيئة له احتفالٌ به

غابت الواوُ العاطفةُ في جملة ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾؛ لأنّ بينها وبين ما قبلَها كمالَ اتّصال؛ لأنّ الثّاني نتيجةٌ للأوّل؛ فهو لازمٌ من لوازمه في نور السّياق، وفي تصريحهم بالمطلوب بعد التّقديم له بالاعتذار بمضمون الآية السّابقة إبلاغٌ في طلب تحقيقه، وهَيْهاتَ هَيْهات!!.

فائدةُ تكرارِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾:

الإبلاغ في استعطاف الرّبِّ الذي عَوَّدَ خَلْقَه الرّحمَةَ والفضل

تَكَرَّر لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآية؛ فجاء أوّلًا في معرِض الاعتذار، ثمّ جاء ثانيًا في معرِض التماس الإخراجِ من العذاب، وفائدةُ تكرار هذا اللّفظِ الجليل هو الإبلاغُ في الاستعطاف، فتضرّعوا ابتداءً بمَن عوّد النّاسَ الإحسانَ وكَلأَهم بعنايته، ثمّ ثَنَّوا بمَن عادته أن يتفضّل بالرّحمة[4]، وفي التّكرار إحداثُ تماسكٍ بين مضمون الجُملَتَيْن،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 586، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 189، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.

وفيه تصويرٌ لما اعتَمَل في نفوسهم؛ مِن أنَّ ما اعتذروا به ينبغي أن يُؤدّي إلى هذه النّتيجة لا محالةَ؛ هكذا في نفوسهم واعتقادهم.

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿أَخْرِجْنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

دعاءُ الدَّيّان أن يُنفِذَهم من حيّز العذاب المحيط بهم

من الألفاظ التي كان لاختيارها أسرارٌ بديعة في الآية لفظُ ﴿أَخْرِجْنَا﴾؛ فالخروجُ في أصل مادَّتِه يدلّ على نفاذٍ من حيّز محيط إلى حيّزٍ آخر[1]، فيُشير بذلك إلى الحيّز الذي هم فيه، وهو نارُ جهنّم اللّافحة، فيَسْتَحضرُ القارئُ ذلك المشهد ومدى رجائِهم الشّديد في الخروج منه، وقد جاء لفظُ ﴿أَخْرِجْنَا﴾ في صيغة الأمر منَ الأدنى إلى الأعلى - وهو الدّعاء - ناسِبًا الإخراجَ إلى المولى ﷻ؛ فهو المَلِكُ الذي يَقْدِر على إخراجهم دونَ غيرِه، وهو يُشير إلى عدم تمكّنهم من الخروج منه، فيدعون صاحبَ العقابِ أنْ يُنقذهم منه[2].

فائدةُ حرفِ الجَرّ والعدول في ﴿مِنْهَا﴾:

طلبُ الإخراج من عذاب النّار التي لا تُذكر ظاهرًا لسوء نُزُلِها

جاء التّعبيرُ عن العذاب في الآية: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ بالضّمير الغائب دونَ ذِكْر النّارِ صراحةً مجرورًا بحرف الجَرّ (من) المُفيد ابتداءَ الغايةِ؛ فالمقصودُ هو الإخراج من النّار، وليس أيَّ إخراجٍ؛ وذلك لِما أصابهم من نَصَبٍ وعذابٍ فيها، وقد ذُكِرَت النّارُ بصيغة الضّمير المؤنّث بدل التّصريح بها، ولعلّ فائدةَ ذلك هو زهدُهم في ذِكْر اسمِها استعاذةً من لَفْحِها[3].

دلالةُ الفاءِ وحرفِ الشَّرط ﴿فَإِنْ﴾ بدلًا من (إذا):

الدّعاء بالإخراج مشروطٌ بعدم العودة إلى أيّ احتمالٍ للكفر والضّلال

عبّر النّظمُ الكريم بحرف الفاء لعطف جملة ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ على ما قبلها ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾؛ ليَدُلّ العطفُ على التّرابط بين المطلوب والشّرط وجوابِه؛ فالدُّعاء بالإخراج من

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).
(2) الرّاغب، المُفردات: (خرج).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.

النّار ليس دعاءً مطلقًا هنا؛ وإنّما هو دعاءٌ مشروطٌ بعدم العودة إلى الكفر والضّلال؛ فالقيدُ من تمام المُقيَّد، وزاد الشَّرطَ بلاغةً استعمالُ (إنْ) بدلَ (إذا)، فـ (إنْ) حرفُ شرطٍ للاحتمال والنُّدرة، بخلاف (إذا) الذي يدلّ على العادة والكثرة؛ فصار الشّرطُ واضحًا؛ أيْ: عودةٌ مهما كانت فإنّها تُثبت أنّهم ظالمون، وفي اجتماع الفاء و(إن) دلالةٌ قويّةٌ على إحكام الدّعاء، وجَعْله أدعى للإجابة؛ لضيق شروطه.

سِرُّ اصطفاءِ لفظ ﴿عُدْنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختار القرآنُ لفظ ﴿عُدْنَا﴾ في الآية ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾؛ لعِلّةٍ تتعلّق بمادّتها وصيغتها، فأمّا عن مادّة ﴿عُدْنَا﴾ فتدُلّ على الرّجوع إلى نفس الحال السّابقة، وهو ما يُشْعِر بأنّ القوم واعون بحالهم السّابقة، وأنّها هي السّبب في تعذيبهم، وكأنّهم يطلبون فُرصةً أُخرى لمغالبة الشّقاوةِ وإثباتِ السّعادة، وأمّا عن صيغة ﴿عُدْنَا﴾ فقد جاء اللّفظ بصيغة الفعل الماضي الذي يدلّ على الحدوث، فإن حدثت منهم العودةُ؛ فهو عملٌ كافٍ لوصفهم بأنّهم ظالمون.

الـرّجـوع إلى نـفـس الـحـال بـأيّ درجـةٍ من الرّجوع سيُثبت الظّلم

غرضُ حذفِ قيد الفعل ﴿عُدْنَا﴾:

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿عُدْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فهل يتعلّق بالعَود إلى الحال السّابقة أو العودِ إلى النّار؟ وما غرضُ الحذفِ هنا؟ إنّ العودَ هنا يصِحّ حَملُه على حال العذاب، كما يصِحّ حملُه على حال الشّقاوة والضّلال[1]؛ لأنّ حال العذاب مُتسبِّبٌ عن حال غلبة الشّقاوة والضّلال، إلّا أنّ الحذف هنا يدلّ بوضوح على الرّجوع إلى ما كانوا عليه من الشّقاوة، وهو مربطُ الفرسِ في العقوبة، ولذلك حُذِف ذِكْره؛ ليَعُمّ وليُبيّن أهمّ عَوْد.

الـعَـوْد إلى غلبة الشّقاوة والـضّـلال عَـوْدٌ إلى عذاب النّار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297.

دلالةُ الفاءِ وجوابِ الشّرطِ في ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾:

لزومُ الظّلم لمَن عاد إلى الضّلال واستحقاقُه للعذاب

جاء التّعبيرُ في الآية ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ بأسلوب الشّرط والجزاء، والفاء هنا واقعة في جواب الشّرط، وهي تعمل على ترتيب الجوابِ على الشّرط لإظهار اللّزوم[1]؛ أيْ: إنّ الحُكمَ بالظُّلم هو نتيجةٌ منطقيّةٌ لكلِّ عائدٍ إلى الضّلال بعد الإخراج منَ العذاب، كما يحملُ جوابُ الشّرط - إضافةً إلى الحُكم بأنّ العائد ظالمٌ - معنًى آخَرَ لازمًا عنه، وهو: أنّ مَن ظلم فإنّه يستأهل العذاب[2].

سِرّ اختيار لفظِ الظُّلم مادّةً وصيغةً:

ظلمُهم تَعَدٍّ وتجاوزٌ لكلّ الحدود، ويستوجب العقابَ

جاء وصْفُ الظّلم - لمَن عاد بعد الإخراج منَ العذاب - في موقعه البليغ؛ وذلك لأنّ مادّة الظُّلم تدور حولَ التّعدّي والتّقصير؛ فهي خِلافُ العدل والوفاء، وهاهنا أصحابُ النّارِ يلتمسون إعطاءَ فرصةٍ أُخرى؛ ليُثبتوا صلاحَهم، فمَن عاد إلى ما كان عليه فقد تَعَدّى حدودَه[3]، ومَجيءُ لفظِ الظُّلم بصيغة اسم الفاعل يدلّ على رسوخ الوصف في صاحبه؛ لذلك فقد اجتمعتِ الدّلالتان لتُبيّن أنّه ظُلْمٌ على ظُلم؛ ظُلمُ التّعدّي الأوّل، وظُلْمُ مخالفةِ الشّرطِ بالعَود، وظُلْمُ التّعدّي بعدَ التّجاوز[4]، فهو ظُلْمٌ مُتَحَقّقٌ، وبشكلٍ تامٍّ، ومُستوجِبٌ لتمام العقوبة.

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾:

ظُلمُ العائدِ بعد ذلك إلى الضّلال، هو ظُلمٌ ثابتٌ دونَ شَكّ

جاء ثبوتُ ظُلمِهم في جواب الشَّرط ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ في جملة اسميّة؛ لإظهار ثبوتِ وصْفِ الظُّلم لكلّ مَن عاد إلى ضلاله بعدَ التّجاوز عنه؛ فالجملةُ الاسميّة تدلّ على ثُبوت وصْف الظُّلم[5]، وهو تأكيدٌ على أنّه ظُلمٌ دونَ شَكٍّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 586.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَلَبة والسّبْق والفَوز:

السّبْقُ تَقدُّمٌ، والغَلَبةُ سَبْقٌ بقَهْرٍ أو بحِكْمَة، وإذا نتج عن السّبق خيرٌ صار فوزًا

من المفاهيم القريبةِ إلى مفهوم الغَلَبة مفهوما السّبق والفوز، وبينها فروقٌ دقيقةٌ؛ فالغَلَبة تقدّمٌ بقَهْرٍ أو بحِكْمَة، والسّبْقُ تقدّمٌ[1]، سواءٌ أكان بالزّمان أو في المكان، وأقربُها إلى الغَلَبة السَّبْقُ في المَنْزِلة[2]؛ إلّا أنّ السّبْق أعمُّ؛ فقد يكون لغَلَبةٍ أو لغيرِها، وليس كلُّ غَلَبةٍ ولا سَبْق بفوزٍ؛ فالفَوْزُ نجاحٌ ومصلحةٌ خالصةٌ[3]، فيفترقُ الفوزُ عن السّبْق والغَلَبة في النّتيجة؛ فقد تكون نتيجةُ السّبْقِ خيرًا ومصلحةً؛ فيُعتَبَرُ فوزًا.

الشِّقْوة والشَّقاء:

الشّقوةُ حالٌ قابلٌ للتّغيير، والشّقاء مآلٌ لا يُتجاوَز

لعلّ من لطيف الملاحظة تمييزَ الشّقْوة عن الشّقاء؛ ذلك أنّ أصلَهما واحدٌ، وهو الشّدَّة والعُسر؛ إلّا أنّ الشِّقْوَةَ على زِنة (الهَيْئَة) من الشّقاء؛ كالفِطْنَة والرِّدّة؛ فصار الشّقاءُ هيئةً وحالًا تُحيط بالإنسان؛ فيَشْعُرُ بالشِّدّة[4].

بينما يُطْلَق الشّقاءُ على المآل، فيَشْعُر الإنسانُ بالشّقاء أو بالسّعادة؛ فالذي يُميّز هذه عن تلك هو أنّ الشِّقْوَة حالٌ قد تتغيّر بمغالبةٍ وجَهْدٍ، بينما الشّقاءُ كأنّه نتيجةٌ ومآلٌ، فليس بالأمر الذي يمكن تغييرُه إذا لم تتغيّر أسبابُه.

الضّلال والحَيْرة:

الحَيْرةُ حالٌ وانفعالٌ، والضّلالُ موقفٌ قد يَنتُجُ عن حَيْرَةٍ

بينَ الضّلال والحَيْرة اشتراكٌ وافتراق؛ فإذا كانتِ الحَيْرةُ تَرَدُّدًا[5] وانفعالًا وعدمَ اتخاذِ موقفٍ واعٍ؛ فإنّها ستُنتِجُ الضّلالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(2) الكفويّ، الكُلّيّات، وأحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (سبق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (فوز).
(4) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 34.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حير).

باعتباره عدولًا عن الصّواب، وإذا كان الضّلالُ هو مجانبةٌ للصّواب والهدى؛ فهو موقفٌ، وقد يكون بقصدٍ وقد يكون عن حَيْرةٍ؛ لذلك فالحيرةُ حالٌ، والضّلالُ موقفٌ، ومن أنواع الضّلال: الحَيْرةُ.

العَود والرُّجوع:

الرُّجوعُ: تحوّلٌ من حالٍ إلى الحال المعاكسة لها، وليس كلُّ رجوعٍ عَودًا؛ إذِ العودُ رجوعٌ إلى الحال السّابقة التي كان عليها، فثَمَّةَ حالٌ أوْلَى، وثَمّةَ تحوّلٌ منها ثُمّ عودةٌ إلى الحالِ الأوْلَى؛ ولذلك استَعمَلتِ الآيةُ ﴿عُدْنَا﴾ للدّلالة على الرّجوع إلى نفس الحال السّابقة وهو مَحَطّ الذّمّ؛ ممّا ترتّب عليه الحُكم بالظّلم واستحقاقِ العذاب.

العَودُ رجوعٌ إلى نفس الحالِ السّابقة، والرُّجوعُ تحوّلٌ من حالٍ إلى عكسِها

بينما لفظ (ارجعنا) لا يحمل هذه الدّلالة، وإن ورد في آيةٍ قريبة المعنى والسّياق؛ وهي قول الحقّ ﷻ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: 99 - 100]، والرّجوعُ هنا رجوعٌ إلى مكانٍ وحالٍ عامّةٍ هي حالُ الدّنيا، وليس الرّجوعَ إلى نفس الحال السّابقة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»